بسم الله الرحمن الرحيم

تصدير الكتاب

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على خاتم النبيين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين ، وبعد :

ففى إطار جهود المعهد العالمى للفكر الإسلامى المتصلة بخدمة قضايا الفكر الإسلامى والمعرفة والثقافة الإنسانية والاجتماعية ، وإعادة بناء النسق الثقافى الاسلامي تم إعداد هذا الكتاب القيّم من كتب أستاذنا الشيخ الجليل محمد الغزالى . فقد توجّه إليه المعهد برجائه فى أن يُعِدّ ـ حفظه الله ـ دراسة حول (إسلامية المعرفة) فأبى قلمه الذى طالما جرى بأفكاره النيّرة فى المناداة بإصلاح المعارف والعلوم الإسلامية ، إلا أن يذهب إلى هذه الناحية التى طالما نادى بإصلاحها فى كتبه الكثيرة ودراساته العديدة فكان هذا الكتاب حديثا ذا شجون حول العلوم النقلية الإسلامية وطرائق تدريسها ووجوب النظر فى إعادة بناء برامجها وطرائق تدريسها وإصلاح مختلف جوانب العملية التعليمية المتعلقة بها وذلك لتتمكن هذه العلوم من أداء دورها الأساسي المطلوب في بناء النسق الثقافي الإسلامى وإسلامية المعرفة الإنسانية والاجتماعية .

وإننا لنرجو أن يكون ما دبَّجه يراع شيخنا الجليل حافزا للمهتمين بهذا الجانب من جوانب ثقافتنا الغائبة ، ليُعمِلوا أفكارهم وعقولهم وأقلامهم فى كل جوانب العملية التعليمية المتعلقة بعلومنا النقلية لإنضاج هذا الجانب وجعله قادرا على مد المسلمين بالعناصر الكفوءة القادرة على إعادة قراءة هذه العلوم وتقديمها للأمة غضة طرية ، قادرة على الإسهام فى بناء العقلية الإسلامية والشخصية الإسلامية وتزويد الأمة بحاجتها من العلماء الربانيين الموقعين عن رب العالمين ، والقادرين على تمكين الدين من بسط ردائه على الحياة الإنسانية المعاصرة وشفاء

أسقامها ومعالجة أدوائها .

وشيخنا الجليل ـ كما قلنا ـ يفتح ملف هـذا النوع من الدراسات والمؤسسات القائمـة عليها ، لإعـادة النظر فى قراءة هـذه العلوم وإصـلاح مناهج تـدريسـها وتقـديمها ، وإصـلاح مؤسسـاتها وتحديد أهـدافها بشكـل يساعـد على تنظيم أعمالها وتلبية حاجات الأمة المتنوعة من هذا النوع من المتخصصين ، فكتابنا هذا هو كتاب حول العلـوم الإسلامية النقلية ، وإصلاحها لاشك فى كونـه لبنة هامة من لبنات إ سلامية المعرفة وبناء النسق الثقافى الإسلامى المعاصر .

وشيخنا الجليل وقد أمضى مـا يزيد عن نصف قرن من الـزمان يتعامل مع هذا النوع مـن العلوم الإسلامية طالبـا وباحثا وداعية ومثقفاً وأستـاذاً هو من أجدر الناس بأن يضـع كفه على مواطن الداء ويقدم المقترحات الناجعة للشفاء .

هذا وإن شيخنـا الجليل قد وعـد بأن يتبع هذه الحلقـة بأخرى يتنـاول فيها آراءه ومقترحاته وتوجيهاته في مجالات العلوم الاجتماعية والإنسانية..

نفع الله الأمـة بعلـومه ، ومتـع المسلمين بطول بقـائه ، ومنّ عليـه بالصحـة والسلامة والعفو والعافية إنه سميع مجيب .

هيرندن ـــ فيرجينيا ـــ الولايات المتحدة الأمريكية

رمضان ١٤١١هـ

إبريل ١٩٩١م

الدكتور طه جابر العلواني

رئيس المعهد العالمي للفكر الإسلامي

تمهيد

أكان الشاعر غالياً عندما قال :

لو غُربل الناس كيما يَعدَموا سقطا لما تحصَّل شيء فى الغرابيل !!

يبدو أنه كان قريبا من الصدق وتقرير الواقع ، يشهد لذلك أن نبينا عليه الصلاة والسلام ـ وهو يعرض الحق على الناس ، وينتقى له من يحسن الاتباع وحمل الأعباء ـ قال: «الناس كإبل مائة لا تجد فيها راحلة»[1] ، ونسبة الواحد في المائة تقترب كثيرا من الصفر .

ما أشبه آراء الناس وأفكارهم ومذاهبهم بمعادنهم النفسية . وسيرتهم الغالبة، إنك بعد تأمل يسير تحكم بأن الأوهام تحرك جماهير البشر ، وتنفرد بزمامهم .

ورب شائعة ينكرها العقل تحولت إلى عقيدة جازمة يملأ أتباعها القارات ...

من أجل ذلك اجتهدت فى تحرِّى الحقيقة ، فإذا ظفرت بها تشبَّثتْ بها يداى كلتاهما ..

ومن هذا المنطلق عرفت الإسلام : « رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا »[2] والنداء الذي قرع آذاني وتحرك له فؤادي، ووعاه عقلي، ووازنه بما بلغه من هنا ومن هناك ، ثم استقر عليه بعد ما استوثق منه ...

إن عقلى مفتوح لما يقوله هذا وذاك ، لستُ عبدَ فكرة ثابتة أتعصب لها دون وعى ، بل أنا ـ ماعشتُ ـ طالبُ حق ..

وكل معرفة ألقاها أبحث عن نَسَبها وأصالتها ، فى ضوء فكر حر ؛ ونقد

---

(١) رواه البخاري في الرقاق وابن ماجة في الفتن.

(٢) آل عمران: ١٩٣.

منصف ، وقد عرفت الله من الوحى الذى أنزله ؛ والكون الذى صنعه ، وتعلمت أن أخدم ماقال بما صنع !!

أجَلْ ، فـإن المقطوع عـن الكون غـريب عـن الوحـى ، أو عاجـز عن دعمـه ، وتصديق أحكامـه ، وقد تعلق بالقرآن أقوام مـادرسوا أرضا ولاسماء ، ولا دَرَوْا تاريخا سابقا أو لاحقا ، فماذا جنـَوْا ؟قعدوا ملومين محسورين ، على حين انطلق خصومهم ينصرون بالعلم أباطيلهم ، ويروجون أوهامهم ...

إن أوضاعنا العامـة مؤسفة ! ما الذى جعل الأمـة الوسط التى أعلى الله بالحق قدرها ، تتراجع لتكون فى هذا العصر أمة ذَنَبا ، تحتفّ بها المناكر العقلية والهزائم الخلقية؟

يجب أن تزول هذه الأوضاع الرديئة .

فى هـذه السبيل التقيت بأسرة المعهـد العالمى للفكـر الإسلامـى ، لقد عنـاهم ما عناني، وأرّقهم ما أرقني، وسبقوا إلى تأصيل المعرفة الإسلامية، ووصْل ماانقطع من منابعها الأولى ...

طلب منى رجال المعهد أن أتوفر على دراسة المسار الفكرى لأمتنا ، وأن أراجع وأحقق ، وبذلوا عونهم لأصل بالبحث إلى غايـة سليمة ، وأقدم ثمرة ناضجة لأمة ترقب من دعاتها وعلمائها أن يفوا لها...

فجاء هذا الكتاب الذى آمل أن يكون خطوة رائدة ، وأن يحظى برضوان الله

مقدّمة

شرائع الأنبياء التي آلت إلينا واتضحت معالمها في رسالتنا، وانتفى عنها كل خطأ وعوج، تقوم على أمرين جليلين: ﴿ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾[1].

وإقامة الدين تعني دعم قواعده، وتوسعة سرادقه، مع إحصاءٍ لشُعَب الإيمان كلها، وتنشئة الأجيال الحاضرة واللاحقة عليها.

أما النهي عن التفرق فيه، فإن الكيان الحيّ لا ينقسم على نفسه، بل ينتشر الحسّ في جميع أعضائه وأجزائه، فإذا اتجه إلى غرض اتجه كلُّه بعزم واحد، لم ينشط البعض ويتخلّف أو يفْتَر البعض الآخر.

﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ كيان واحد يلتف حول سياج واحد! ولم ذلك؟ لأن الأعداء متربصون به! هم به ضائقون، ومنه نافرون، وله كائدون...!

إنهم يكرهون عقيدة التوحيد وما انبنى عليها، ويشمئزون منها، ويتجهمون لأصحابها ﴿ إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا ﴾[2].

من أجل ذلك لخّص القرآن الكريم واجبات حَمَلَة الحق في هاتين الجملتين ﴿**أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه**﴾.

كلمتان ما أيسر النطق بهما، وما أصعب الحفاظ عليهما.

---

(١) سورة الشورى: ١٣.

(٢) سورة الكهف: ٢٠.

وقد نظرت إلى أمتي الإسلامية، واستشعرت عجبًا من مواقفها!

أنا وأخي نؤمن بجملة العقائد المطلوبة، وأنا وهو مشغولان بما يستنفد العمر وفاءً بأعباء الحق وتكاليفه، ومع ذلك نهدر الكثير المتفق عليه، ونحتفي بالقليل الذي يُظَنّ فيه خلاف! أنا وهو مثلاً نؤمن بأن الله حق، وأنه واحد، وأنه لا شريك له، وأنه لا يشبه المخلوقات ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[1].

وتبعات هذا الإيمان المجمع عليه كثيرة في ميادين الأخلاق والأعمال، والدعوة والجهاد، وشئون الحياة كلها.

ومع ذلك فقد يرد في الأثر أنّ الله ينزل إلى السماء الدنيا في ثلث الليل الأخير؛ فيغفر للمستغفرين، ويجيب السائلين.. الخ.

فنقول جميعًا: يستحيل أن يكون النزول على حقيقته المادية، فيخلو منه المكان الذي تركه، ويشغل به المكان الذي قصده، ونتفق على أنه على كل شيء شهيد ومهيمن ومقتدر إلخ، ثم يقول بعضنا: المقصود بالنزول التجلّي ، ويقول الآخر: هو نزول يخالف ما نألف، ولا ندري كنهه.

هل هذا التفاوت في الفهم أو التعبير، في هذه القضية وأشباهها، يجعل الأمة أحزابًا متباغضة، وأقسامًا متنافرة، وفرقًا يضرب بعضها بعضًا، كي يَهِيَ صفُّنا كله أمام الكافرين بالله، الكارهين لوحدانيته وجلاله؟!

لقد تدبّرت هذه الحال ونتائجها، وتذكرت قول رسولنا: «ما ضلّ قوم بعد هدى كانوا عليه، إلاّ أوتوا الجدل»[2].

بل لقد ساءلت نفسي: هل المولعون بقضايا الخلاف، صغراها وكبراها، والذين يحشدون أفكارهم ومشاعرهم وأوقاتهم للانتصار فيها، والفرح بخذلان مخالفيهم، هل هم مخلصون للقضايا المتفق عليها؟

لماذا ننسى القواعد التي تجمعنا، ونهشّ للدروب التي نتفرق فيها..؟

---

(١) سورة الشورى: ١١.

(٢) تفرد به المصنف، المستدرك ٢؛ ٤٤٨ــ٤٤٩، ورواه ابن ماجة في المقدمة.

الحق أن هذا الاهتمام بالأمور الخلافية لون من الطفولة الفِجَّة ، والزيغ الفارّ بأهله من ميدان الحق ، لأنه كثير التكاليف ، إلى ميدان آخر لامشقة فيه ولا تزحمه واجبات ثقال ..

وأترك الماضى وذكرياته المؤذية إلى الحاضر المحرج .

أمة هى خمس العالم من ناحية التَّعداد ، تبحث عنها فى حقول المعرفة فلا تجدها ، فى ساحات الإنتاج فلا تحسّها ، فى نماذج الخُلُق الزاكى ، والتعاون المؤثر ، والحريات المصونة ، والعدالة اليانعة ... فتعود صفر اليدين ! !

بماذا شغلت نفسها ؟ بمباحث نظرية شاحبة ، وقضايا جزئية محقورة ، وانقسامات ظاهرها الدين وباطنها الهوى ..

واستغرقها هذا كله ، فلم تعط عزائم الدين شيئا من جهدها الحار ، وشعورها الصادق .. فكانت الثمرات المُرّة أن صرنا حضاريا وخلقيا واجتماعيا آخر أهل الأرض فى سُلَّم الارتقاء البشرىّ ! !

حكومات فرعونية إقطاعية ، وجماهير تبحث عن الطعام ، وفنّ يدور حول اللذة وطرقها ، ومتدينون مشتغلون بالقمامات الفكرية وحدها كأنما تخصصوا فى التفاهات ..

أما العالم المتقدم فهو يعبد نفسه ، ويسعى لجعل الشعوب المتخلفة ـ وأولها المسلمون ـ عبيدا له ، وأرضهم مصادر للخامات التى يحتاج إليها ، أو الأتباع الذين يستهلكون مايصنع ..

ثم .. هناك بعيدا عن الأعين بنو إسرائيل يمكرون ليقيموا الهيكل ، كى يحل الله فيه ويحكم بهم العالم ، أو جماعة الكرادلة والكهان الذين يعملون لإقامة مملكة الرب ، تمهيداً لنزول المسيح له المجد ! !

وأنا رجل مسلم امتنّ علىَّ الحق فعرفت دينى بعد دراسة نقية للوحى الأعلى .

ولا بأس أن أذكر بعض ما أعتمد عليه وأنا أتحرك هنا وهناك .

أشعر أحيانا بفخر وأنا أقول لنفسى : إننى مع الملائكة أشهد لله بالوحدانية والعدالة ، أليس يقول الله تبارك اسمه : « شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ

وَأُوْلُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ »[1] .

إننى مع كل ذى معرفة شريفة نشارك الملأ الأعلى فى إعظام الله وإجلاله ، والانسياق مع أسمائه الحسنى ..

العلم عندنا يستحيل أن يخاصم الدين أو يخاصمه الدين ، وقضية النزاع الموهوم بين العلم والدين لاصلة لها بالدين الصحيح ، قد يقع النزاع بين العلم وبين البوذية أو البرهمية أو عقائد اقتبست منهما ، أو متدينين انتسبوا إلى الله وأبَوْا السير على طريقه المرسوم ، فغضب عليهم لما كذبوا عليه ..

أما العقل السليم فهو الأداة الوحيدة لفهم الوحى ، والكون على سواء ..

ومن ثم فما دمت مستقيما مع عقلى ، فأنا مُتشبِّث بدينى ، سائر على الفطرة ، بعيد عن الانحراف !

وأمرٌ آخر لاغنى عنه ، أشعر بالفخر وأنا أستحضره ! أقول لنفسى : إننى وراء محمد ـ الإنسان الكامل ـ عندما يقول الله له : « قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ »[2] .

نعم أنا من أتباع محمد فى الدعوة على بصيرة ...

وقد شاء الله أن يجرِّد سيرة نبيِّه الخاتم من كل شائبة للكهانة ، وتجاوز للإنسانية المجردة .. فإذا عربى من أعماق الجزيرة المعزولة عن التاريخ يخرج على الناس بكتاب مبين ، ومسلك فى بناء النفس والجماعة لم يعرف التاريخ ولن يعرف أزكى منه ولا أرقى ..

درسنا فلسفة يونان ، وآداب الفرس والهند والصين ، ودرسنا سِيَر الملوك الذين حكموا ، والقادة الذين فتحوا ، ووازنّا بين تراث وتراث ، وآثار وآثار ، فما وجدنا بعد التمحيص والتدقيق إلا مايُفرِد رسالة محمد بالصدق وقَدْرَه بالشرف .

أنا لست من المسحورين بقادتهم ، ولا المفتونين بتراثهم ! وفى عقلى نافذة

---

(١) سورة آل عمران : ١٨ .

(٢) سورة يوسف : ١٠٨ .

مفتوحة أبدا لتَلَقِّى الشُّبَه والأسئلة والاعتراضات ، والوقوف قليلا أو طويلا بإزائها ..

ومع ذلك فعلى طول تلاوتى للقرآن لم أزدد إلا يقينا ، وعلى طول تفرُّسى فى سيرة نبيه لم أزدد إلا إعجابا ...

وأحتقر من يثير الشكوك ليقال إنه ذكىّ ، ومن يكتم إعجابه ليظهر بأنه مستقل لاتابع !

ومَعاذَ الله أن أفقد الإنصاف مع من يتحدثون عنى بانحراف ! أو أستهين بالمواريث الأدبية والمادية التى جعلت أكثر البشر لايعرفون الإسلام ولا يدينون به ، وربما حقدوا على أهله وظنوا بهم الظنون ! !

سأبقى إلى الممات وفيا لمواثيق الفطرة التى أخذها الله علىَّ ، ومقتفيا آثار النبيِّن الذين ربطوا حياتهم بواهب الحياة « أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَالَمِينَ »(١) .

غير أنى أمْقُت الخداع والمَيْن ، وقد سمعت رجلا من شيوخ انجلترا أو أمريكا يقول لحكومته : لايجوز أن نرسل أولادنا ليموتوا ـ فى معركة الخليج الأخيرة ـ فى سبيل شيوخ النفط الذين سرقوا شعوبهم ، وبدَّدوا ما أخذوا على موائد القمار وفى علب الليل ..

إن هذا القائل يعلم أن الجيوش التى جاءت من أوروبا وأمريكا إنما جاءت لتحمى موارد النفط ـ الذى هو شريان الحياة الصناعية ـ وتستبقى ضخَّها لمصالح شتى ، آخرها مصلحة الشيوخ اللصوص الخونة الذين يتحدث عنهم هذا القائل ..

وفى الحياة يكثر أن يختلط النفع والضر ، والإثم والبر ، وعلى أولى الألباب أن يتريثوا طويلا فى معالجتهم لبعض المشكلات ...

إن للنفط العربى قصة تبعث على الأسى والسخط ، فإن مناجم هذا المعدن كثرت فى بلادنا ، بيد أننا كنا مشغولين عنها بشئون أخرى جعلتنا نسرح بقطعان

---

(١) سورة الأنعام : ٩٠ .

الضأن والمعْز فوق هذه المناجم ، دون فكر فى استثارتها أو ارتفاقها ! !

إن الذى كشف هذه المعادن هم « الخواجات » أما نحن فكنا نتنازع : هل حديث التوسل صحيح أم ضعيف ؟ هل كرامات الأولياء حق أم وهْم ، هل الحكم لبنى هاشم أم لأسر أخرى ؟...

إن أهل القرآن خانوه خيانة فاجرة ، واتخذوه مهجورا ، فى الوقت الذى أَنِسوا فيه بباطل من القول ، وسخف من الجدل ..

وغرقوا فى غيبوبة عجيبة من المباحث التى ماعرفها السلف الأول ، ولو عرفها ما أفلح أبدا ، ولا افتتح قطرا ، ولا أنشأ حضارة ! !

وعندما قام الأوربيون بتصنيع النفط وتلوين مشتقاته ، ثم صنعوا الناقلات العملاقة فحملته إلى أرضهم ، أعطَوْنا ثمن السلعة التى ابتدعوها ! فماذا صنعنا بهذا الثمن ؟

ذهب أقلُّه فى خيرنا ، وذهب أكثره فى ضرنا ...

ولن أتحدث عن مخازاة السرف فى مواطن الشهوات ، ولا المجازفات المجنونة بمال الله فى إرضاء الشيطان ، ولا الأرصدة التى تعمر بنوك أوروبا وأمريكا ، وتجمدها كلما حلا لها ، ولا .. ولا .. فالحديث مهين لأمتنا كلها ...

إنما السؤال عن سرّ هذه المحنة من الجذور ؟ ما الذى جرَّنا إلى هذا القاع السحيق ؟ فجعلنا نأخذ ولا نعطى ؟ وجعلنا نتحرك فى موضعنا أو إلى الخلف ؟ وجعل بيننا وبين كتابنا بُعْدَ المشرقين ..؟

إن هذا المؤلَّف « محاسبة نفسيّة » لموقفنا فى الحاضر والماضى ، ولن يصلح لنا مستقبل إلا اذا دقَّقْنا فى هذا الحساب ، ووضعنا أيدينا على أسباب العوج ..

وكل محاولة لاقتحام المستقبل بفكر عصور الانحطاط لن تزيدنا إلا خبالا ...

كنت أقرأ أسماء الأسلحة الحديثة فأشعر بهول مابلغه القوم من قوة ، هذه صواريخ جوّ جوّ، وجو أرض ، وأرض جو، وأرض أرض ، وهذه طائرات قاذفة ، وتلك مقاتلة ، وهذه سبتية ، وهذه مزوَّدة بمدافع للهجوم ، وهذه تفلت

من شباك «الرادار» أما المقذوفات من شتى الأسلحة فـفنون وجنون ، هذه فخاخ ألغام ، وهذه ... إلخ ...

قلت : ما أروع ما أعدَّ هؤلاء لنصرة معتقداتهم وقيمهم ! فهل أعد المسلمون شيئا من هذا فى بلادهم بتفوقهم الصناعى ومهاراتهم الخاصة ؟ كلا اللهم إلا مانشتريه منهم فيبيعون لنا مايستغنون عنه ، ثم يمدوننا بذخائره بين الحين والحين ! !

ما أعرف فشلا فى نصرة الدين والشرف ، والأرض والعرض أقبح من هذا الفشل !

بم شُغلنا عن مثل هذا الإنتاج ؟ بالجدل المحموم فى غيبيات نُهينا عن التقعُّر فيها ، بتجسيم الخلاف الفقهىّ ، وإيقاد الشرر منه ، مع علمنا القاطع بأن وجهات النظر كلها مأجورة من الله سبحانه ، ولا لوم على مخطئ ، إن عُرف خطؤه ...

بالانصراف عن شئون الدنيا مع نسيان حقيقىٍّ لخالق الدنيا والآخرة ! إنه انصراف بلادةٍ وغباء ، وليس تجرُّداً لتقوى ، ولا ترفُّعا عن شهوة ..

هل يشعر المسلمون بأن لهم رسالة كبرى تزحم البر والبحر وتشغل الإنس والجن ؟ ما أخالهم يشعرون ! إنهم يعيشون فى زوايا متواضعة متقاصرة من الأرض ، ينظرون إلى التقدم الحضارىٍّ بعيون ناعسة ، وينظر العالم كله إليهم نظرة استهانة ! ربما أعطاهم شيئا من العون المادِّىّ الذى يسألون ، وربما تَصدَّق عليهم بشىء من العون الأدبى الذى إليه يرنون ..

إننى أجزم بأن فلسفة الكون فى القرآن الكريم بعيدة جدا عن أفهام قرائه ، وأن جمهرة المسلمين لاتسمع من هدير الآيات شيئا طائلا ، فهم « كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ..»(١)

قرأت قوله تعالى : « ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ

(١) سورة البقرة: ١٧١.

وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ »[1] ثم قلت : إن ضمير الجمع للمخاطب تكرر خمس مرات فى هذه الكلمات ، كأن الله يقول للسامعين : هذا كله لكم ، لكم أنتم ، لكم وحدكم !

ومن السامعون ؟ أبناء آدم جميعا ، أهل الأرض كلهم ، كما قال فى موضع آخر « خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ... »[2]، وقال: « هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا ... »[3].

ومع هذا كله فقد سألت نفسى : هل العرب والمسلمون من بين جمهور المخاطبين ؟ هل الكلام يتناولهم مع سائر الناس ؟ أم هم مستثنَوْن من الناس ؟ إنهم غرباء بين الأرض والسماء ! حتى الفلاحة وهى حرفة بدائية أجادها غيرهم ، وأكثر ثمارها ، وهم يُحْرِزُون أرغفتهم بِشقِّ الأنفس !

وقد صور غيرهم الخيرات فى باطن الأرض ، وشرع يستخرج السائل والجامد من معادنها ، ونحن ننظر دهشين ، وبعض شُطَّارِنا يفتى بأن التصوير حرام ! !

وَسَالَتْ فوق ثبج البحار بوارج ومدمرات وشقت أعماءها غواصات تحمل الردى ، وناقلات نفط عملاقة وغير عملاقة ، ماصُنع شىء من هذا كله فى موانينا الجميلة ! إننا نرمقها معجبين بعد أن يُتم غيرنا صنعها ... !

تساءلت : أين نحن من دنيا الناس ؟ وتساءلت مرة أخرى : أين نحن من ديننا ؟ وهل نُنْصفه أو نشرِّفه بهذا التخلّف السحيق ! بل هل نستطيع حمايته يوم تُسْكِرُ القوة أصحابها ـ وما أكثر سكراتها ـ فيتحركون للنيل منا والإجهاز على بقيتنا ؟

إن المسلمين أقرب إلى الموت منهم إلى الحياة .. وقد تهز بعضهم غرائز الدنيا فيصيح ويسعى ، لكنه لايفعل شيئا ، ولا يبلغ هدفا ! لأنه ما استفاد من النعمة التى يسَّرها الله له ، أعنى أنه ما استفاد من الوحى الذى أغناه عن التجارب ،

---

(١) سورة ابراهيم: ٣٢، ٣٣.
(٢) سورة البقرة: ٢٩.
(٣) سورة الملك: ١٥.

ومهّد له سبيل الكمال ، وعلّمه كيف يؤدى حق الله ..! وكيف يحتفظ بحق نفسه ...

هذا الكتاب لاغير تَلَقَّفَهُ آباؤنا الأقدمون فصحّحوا به مسار الحياة ، وأبدعو حضارة أرقى وأزكى مما عرف السابقون ، فما بالنا نقرؤه دون وعى ، ونَخِرُّ على آياته صُمًّا وعميانا ؟

رأيت يوما إحدى الصور التى أرسلتها مركبة الفضاء الأخيرة ! ورأيت الشمس والأرض نقطا ضئيلة فى بحر الظلام الذى يَسُود الملكوت !

لقد سبّحتُ بحمد ربى ، وتضاءلت فى ذاتى ، وأحسستُ أن قيُّوم السماوات والأرض صاحِبُ مُلْك لايَبْلَى على امتداد الأزل والأبد !

إن مالا نبصر أضعاف أضعاف مانبصر من هذا العالم الضخم الفخم ...!

وشعرت أن الجديد الذى انطبع فى نفسى صورة طبق الأصل للقديم الذى رسمه الوحى فى قلبى وعقلى ، إن القرآن الكريم علمنى هذا من قبل ! !

لكن هل يعلم الناس هذا ؟ من يعلمهم ؟ وأهل القرآن نيام عنه ، مشغولون بكلام خفيف الوزن « وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ وَاتَّقَوْاْ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ »[1] .

هل نعود مرة أخرى لتدبُّر كتابنا وبناء الحياة وَفْقَ دلالاته ..؟

فى عصور مضت ربما كانت المسافة بين العلم بالإسلام والعمل له لاتتجاوز أشبارا أو أذرعا ، أما فى الآونة الأخيرة فإن المسافة تبلغ أميالا طويلة ..

ولا أتحدث هنا عن سياسة الحكم والمال ! وإنما أتحدث عن الأخلاق والتقاليد والقدرات المطلوبة لإحسان أى عمل وإدارة أى جهاز .

إننى رأيت أياما يؤدى العمال فيها ما عليهم دون أن يشعروا بأى حق لهم ، لعلهم كانوا يطبقون الحديث المعروف « أدّوا الذى عليكم وسلوا الله الذى لكم »[2].

---

(١) سورة البقرة: ١٠٣.

(٢) رواه مسلم في الإمارة وابن ماجة في الجهاد.

وهذا الحديث يأبى الظلم ، ولكنه يحرس المجتمع من عواقب التفريط والإضراب عن العمل ! !

ثم جاء بعد ذلك جيل من العمال والفلاحين يطالبون بحقوق ليست لهم ، وقلما يؤدون عملا أو يكملونه أو يتقنونه !

وكثيرا ما أنظر فى أحوالنا فأرى الفوضى تسبق النظامَ فى أغلب الإدارات ـ وأرى أجهزة ضخمة وثمرات تافهة ، وأرى نسيانا متعمدا لقوله تعالى : « وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا »[1].

وقلما رأيت الجودة فى صناعاتنا ، أو شارات الإحسان والتجويد فى إنتاجنا .

إن الرياء والتزوير وموت الضمائر خلائق منتشرة لا يوجد لها نظير فى مجتمعات شيوعية أو علمانية مقطوعة عن الله .

وقد يكثر المال فى أيد لاتعرف قدره ، فيزداد الإقبال على المخدرات ، والبحث عن المتالف ، وربما نظرت إلى فئات فى المجتمع فتذكرت المثل المقول فى عبد السوء : إذا جاع سرق ، وإذا شبع زنى ! !

وعلة هذا الهبوط واضحة ، فقد تسللت مباذل المدنية الحديثة إلى بلادنا فى فترة ضعف شديد فى موروثاتنا الدينية ، فلم تلق مقاومة تذكر ...

ومن هنا رأينا ألوف العمال والفلاحين يهاجرون طلبا لأدوات الحضارة الحديثة ومظاهرها ، والأمل المسيطر هو الفيديو والتليفزيون الملون ، والحرير والمذهبات ، وصنوف الترف ، ثم تنافست طبقات الأمة كلها فى استجلاب هذه المظاهر والعناصر ...

وشاء القدر أن يقع ذلك فى الوقت الذى نضج فيه التفكير لإقامة إسرائيل الكبرى ، والتطويح بمستقبل الأمة الإسلامية كلها .. ! !

لقد تحرك كل ذى دين لنصرة دينه ، وطولب المسلمون وحدهم بنسيان دينهم ، وعدم التجمع على شعائره أو شرائعه ! ! ولحظت أن فتيانا لاينقصهم

---

(١) سورة الأعراف: ٨٥.

الإخلاص ، يبتغون التجمع على دينهم ورفع أعلامه ، لكنهم لايدرون ما الطريق ؟

بعض الأمراض الخبيثة تظهر لها أعراض على سطح الجلد ، فيظن المعالج القاصر أن هذه البثور سطحية ويشتغل بمداواتها على هذا الأساس ، وسيقضى عمره دون أن يصل إلى شيء ..!

ومن المشتغلين بالدعوة من لا تعدو عينه هذه السطوح ، والأمر أخطر مما يتوهمون ، وسيأتيهم أجلهم وهم فى أماكنهم لاينقصون ذرة من علل أمتنا ...

من أجل ذلك تعاونتُ مع أولى الألباب على تشخيص العلة وتحديد الدواء ، باحثا فى الحاضر والماضى ، مستقرئا مايظهر ومايخفى ، فكان هذا الكتاب الذى تدور فكرته حول « المسار الفكرى فى تراثنا » .

إنه مراجعة وتحقيق .. وقد قطعت نصف المرحلة الآن ، ولاتتم الرحلة حتى أضع إن شاء الله بحثا آخر عن العلوم الإنسانية ، آمل أن يدركنى فيه توفيق الله .

محمد الغزالى